المؤمن والدهريّة، الجزء الأول

بقلم المتروبوليت سابا (اسبر)

الدهريّة، صفة العالم الحاليّ، لفظة مشتقّة من لفظة "دهر"، وتعني الفكرَ الأرضيّ المحض، أي فلسفةَ العيش وفق معطيات الحياة الأرضيّة فقط. جاء في معجم "المنجد" أنّ الدهريّ هو الملحد القائل إنّ العالم موجود أزلاً أبداً لا صانع له. بهذا المعنى تكون اللفظة مشابهةً للفظة "العالم" كما وردت في إنجيل يوحنّا. المسيحيّ في هذا العالم، ولكنّه ليس منه. أي يعيش فيه لكنّه يستمدّ فكره المعيشيّ من الإنجيل لا من العالم.

تعني الدهريّة، بمعناها المعيشي المعاصر، تدبيرَ أمور الحياة بقدرة الإنسان وحده، لا الله. الإنسان، وحده، مرجع العالم الدهري ومنطلقه ومصدره. بدأ هذا المفهوم يتقوّى ويسود، ليصير فلسفةً وسياسةً يعتمدها البشر، وكذلك المجتمعات والدول، منذ ثلاثمائة سنة تقريباً. وكلّما تطورّت القدرات التكنولوجيّة، التي تمنح الإنسان قوّة للتغلّب على صعاب الحياة، وإمكانيّاتٍ لمواجهتها والقضاء عليها، ترسّخ وتجذّر نمط العيش دهريّاً، في الوجدان الإنسانيّ، أكثر فأكثر.

لا يكمن خطر الدهريّة، فقط، في أنّها تستغني عن الله مرجعاً للبشريّة، وتضع الإنسان محلّه، بل في أنّها تسمح بعدم نكران الله نظرياً، لكنّها، في الواقع، تنكر، عملياً، فعله في العالم. تجعل الدهريّة الله نوعاً من مجرّد صورة، شكل، إيمان نظريّ لا غير. قد تحافظ على الممارسة الدينيّة، لكنّها تفرغها من جوهرها، الذي يُستبدَل بآخر دنيويّ محض. فهي تفصل بين الحياة والإيمان، وتحصر حياة الإيمان ببضع ممارسات دينيّة. فلا يعيش الإنسان، دهريّاً، وفق متطلّبات إيمانه، بقدر ما يعيش وفق متطلّبات الثقافة الدهرية.

فأمور الحياة، بحسب الدهرية، تُقضى دنيويّاً، أمّا أمور الله فتُقضى في المعبد، يوم الأحد. والنتيجة، أنّ السلوك ينفصل عن الإيمان، وكذلك الأخلاق، والقيم، وطرق العيش. فينحصر الإنسان في البعد الأرضي لحياته، ويجعل البعد الروحي بمثابة عطر يمنحه شعوراً بإرضاء الضمير، وعدم مساءلة الذات على ضوء الإنجيل، وتالياً عدم مطالبتها بأكثر ممّا هو في الواقع.

ما من مقدَّس في الدهريّة. لأنّ الإنسان لا يحيا في توقّع الأبدية وتحقيقها، أو بالأدقّ اختبارِها، ولو تمتمةً، منذ الآن. لا تعود حياته الأرضيّة اقتداءً بالعلويّات، وتجسيداً للآتيات، بقدر ما ترسم الدنيا الحاضرة، مسار الحياة وتوجهها ومسعاها. لا بل على العكس من ذلك، تصير الحياة الأرضيّة هي الهدف والغاية، ولها تُسَخَّر كل الإمكانيات المتوفرة، بما فيها الدينيّة والروحيّة. هناء الحياة الأرضيّة هو الإطار الذي تسجن فيها هذه الفلسفة الإنسان، مهملةً أبعاده غير الماديّة. الدهرية طريقة حياة مادّيّة كليّاً. هي وجه آخر للمادّية الماركسية. فهي تنشّئ الإنسان في عالم لا تنتهي متطلباته الماديّة، فترسم له مجتمعاً استهلاكيّاً، تجعله يلهث، باستمرار، ركضاً وراء أموره المعاشيّة، التي لا تنتهي. استعدت الماركسيّة الدين علناً، أمّا الدهريّة فتقبله ظاهريّاً، غير أنّها تستوعبه وتُفقده جوهره في آن.

أذكر ابن كاهن أميركي، من أصل شرق أوسطي، كتب في مذكّراته، مستغرباً، بعد أن قضى معي فترة ثلاثة أشهر، يتعلّم العربية، ما يلي: "الله حاضر في حياة الناس يوميّاً هنا، (في الشرق)! إنّهم يُدخلونه في كلّ أمر من أمور حياتهم، ولا يقصرونه على يوم الأحد فقط!!"

هذا الشكل من العيش، الذي طغى على الإنسان، بعامّة، ساهم في خلق ازدواجيّة، بين الإيمان والحياة. فليس من السهل، على المؤمن أن يميّز، دوماً، بين ما يوافقه، كمؤمن، وما

لا يوافقه. ودخل هذا الالتباس إلى عمق الوجدان البشري، وتشرّبته الجماعات البشريّة، وإن بدرجات، حسب كلّ جماعة، ومدى تأثير الدهريّة في مجتمعها.

كلّما ازداد التقدّم التكنولوجيّ تطوّراً، ازدادت إمكانيّة الإنسان في التحكّم بواقعه أكثر فأكثر، وتالياً، صار معتمداً على طاقته وإمكانيّته، مستبدلاً الله بهما.

هاكم بعض الأمثلة البسيطة:

- اعتاد الإنسان على اللجوء إلى الله طلباً لشفائه، من أيّ وجع أو مرض جسديّ، مهما كان بسيطاً. فقد اعتاد أجدادنا على استدعاء الكاهن لكي يصلّي على مرضاهم، ويمسحهم بالزيت المقدّس. كان سرّ مسحة المرضى سرّاً مُعاشاً. بينما يلجأ المؤمن، اليوم، مباشرة، إلى الدواء المناسب، وقلّ من يرسم إشارة الصليب، طالباً بركة الله، قبل تناول الدواء. أمّا الصلاة فصارت الملجأ الأخير، حينما ينقطع الأمل من الطب.
- سحٌ سريع لكيفيّة إتمام مناسبات الزواج، ضمن الكنيسة وخارجها، فالسرّ الليتورجي صار فولكلوراً!! وصلاة الإكليل الخشوعيّة حفلاً! والاهتمام منصّب على كلّ شيء ما عدا التحضير لتقبّل بركة الله. هذا يطرح تساؤلات حاسمة: كم هو عدد الذين يمارسون سرّ التوبة والاعتراف قبل زواجهم؟ ما هي نسبة الذين يتقدمون من سرّ الإفخارستيّا قبل إتمام إكليلهما؟
- كيف يميّز العروسان اليوم، وهما في غمرة تحضيرهما لحفل زواجهما، بين ما يليق بهما كمسيحيَين وما لا يليق؟ وإذا ميّزا، كيف يمكنهما أن يواجها تأثيرات الوالدين والأصدقاء؟ هل يملكان القدرة على مخالفة العادات المرافقة لحفل الزواج؟ وما هي التقاليد الجوهريّة التي لابدّ منها، وما هي الشكليّات التي يُمكن الاستغناء عنها؟ كيف يفهمان سرّ الزواج، وتالياً المفهوم المسيحي للزواج؟

- أما بات الدخول إلى الكنيسة لإتمام الإكليل، عند الكثيرين، خالياً تماماً من الحسّ الروحي، ولا يبدو في وجدانهم أنّهم يشاركون في صلاة خاشعة مقدّسة، ولو كانت طقوسها في غاية الجمال؟ ألا تشير الثياب المخجلة، التي يدخل بها بعضهم إلى الكنيسة، إلى طلاق حقيقي بين المسيحيّة وبين مسيحيّتهم؟ ألا يدلّ هذا المسلك على طغيان الروح الاحتفاليّة العالميّة على الروح التقديسيّة؟
- تحوِّل الروح الدهريّة كلّ مقدّس إلى فولكلور أو لون ديني، يضادّ، في شكله، جوهر الأمر الحقيقي. نقيم حفلاً خيريّاً كنسيّاً، في الصوم، فندعو إلى عشاء صيامي فاخر!! ألا تتناقض، جوهريّاً، كلمة فاخر، أي باذخ، مع جوهر الصوم؟ وتصير موائد المحبّة، الأصيلة في تقليدنا، والمعبِّرة، أساساً، عن الحس العائليّ للمؤمنين في الكنيسة، ولائمَ، لا يستطيع المشاركة فيها إلا الميسور؟
- تقدّم الروح الدهريّة الموت نهايةً طبيعيّةً للحياة، فتصالح الإنسان معه. فتولي طقوس الدفن أهميّة كبرى. في بعض البلدان يُخضعون وجه الميت لعمليّة مكياج حقيقيّة، لكي يبدو جميلاً في نومه، ولا يزعج منظره الآخرين. بينما تواجه المسيحيّة الموت وتكشفه باعتباره العدو الأخير للحياة، وتصيّره معبراً إلى الاكتمال في الحياة الحقّة (الأب ألكسندر شميمن).

روح الدهريّة هذا دخل إلى قلب الكنيسة، ولا عجب، فأهل الكنيسة، رعاة كانوا أم رعيّة، هم أبناء هذا الدهر، فإنْ كان تأثيره عليهم أقوى من تأثير الإنجيل، فسيسلكون دهريّاً، حتّى، في الكنيسة، عن غير دراية، ربّما، في حالات كثيرة.

(للمقال صلة)